مع انتاجه. ان قراءتنا لآثار غسان تملؤنا حيوية وحماساً، فلأسلوبه سحر لا يصوره إلا تعبير سهيل ادريس عندما صاح «اجعلها [قصص غسان] يا شعب فلسطين قرآنك»(٥). انّ ما يشدنا الى آثار غسان، اضافة الى جودتها الفنية، هو هذا الحماس المبثوث في حناياها، وهذه الشحنة العاطفية التي تغمرها فتجعلها قريبة الى أنفسنا. نألفها ونحنّ اليها؛ إذ أننا عندما نقرأها لا نحسّ ببرودة التحليل الذي كثيراً ما يغمر الروايات الواقعية الاجتماعية، ولعلّ هذا راجع الى ثراء لغته وشاعرية صوره، فهي تشحن كتاباته بدفق عاطفي حماسي، أو الى النغمة الغنائية التي يغمر بها آثاره فيجعل فيها تناغماً عميقاً يؤلف بين أجزائها ويكوّن لحمة أقرب الى الصياغة الشعرية منها الى البناء الروائي. ولعلّ السبب الأعمق لذلك كله هو تعاطف غسان مع ما يقدم من أبطال وأحداث، فكأنما يكتب عن همومه الخاصة، فهو يتألم مع أبطاله ويتفهم مشاكلهم ولم نره أبداً يسخر منهم أو يستهزىء بهم، بل على العكس من ذلك كثيراً ما يدفعه تعاطفه معهم الى تعويض الواقع بالحلم وخلق عوالم خيالية تساعدهم على تجاوز الواقع، ولكن لا يجب أن نعتبر أنه يقدم هذه الأحلام رحمة بأبطاله فقط، بل هي مبنية على ايمان بالتطور التاريخي وعلى تحليل موضوعي لسيرورته. ان الحلم عند المثقف الاشتراكي ينبني دائماً على قناعات راسخة منشؤها ايمانه بالمستقبل. ومن هنا يصلح لرومنسيته بعد نضالي يثريها ويخرجها من هوس الخيالات المجانية؛ فظهور الأم مثلاً بالأرض المحتلة في رواية «أم سعد»، أو طريقة تعرّف العاشق على زينب أو علاقته بالخيل، وكذلك الرؤى التي تتراءى للأطرش في رواية «الأعمى والأطرش»، لا تبعث فينا شعوراً بالاستغراب بل على العكس من ذلك تدغدغ أعماقنا فتيقظ آمالنا وتحيي فينا الايمان بالمستقبل. ان هذه الصور هي صور رومانسية ولكنها صور هادفة وفعالة تسعى الى ايقاظ أحلامنا وتثبت ايماننا بالمستقبل، وهي لا تدفعنا الى الأحلام الخاوية بل تبث فينا الحماس والاقبال على العمل من أجل تحقيق ما توحي به.

وفي الختام، يمكننا أن نقول ان غسّان كنفاني ترك لنا آثاراً روائية استطاعت أن تخاطب وعينا الاجتماعي بمحتواها الملتزم، وأن تخاطب ذوقنا الفني بمساهمتها الجدية في الأسلوب وأن تخاطب عواطفنا وأحاسيسنا بلغتها الشعرية ونكهتها الرومانسية وهو لم يترك لنا شكلاً روائياً محدداً ولكنه ترك أساليب متنوعة ترسي معالم الفن الواقعي الاشتراكي في العالم العربي، وقد صورت لنا هذه الآثار ايمانه بضرورة البحث عن أشكال جديدة تخدم المضامين التي أتت بها الرؤية الاشتراكية وتزحزح الأشكال الجامدة وتقاوم روح المحافظة عند الكاتب العربي.

لقد ترك لنا غسّان مساهمة جدية في تطوير الشكل الفني تدل على سعة اطلاعه وقدرته الفنية وعلى ايمانه، فان الفن يجب أن يواكب الحياة في كلّ أبعادها، وأن يتحدد دائماً وأن يشمل كلّ المشاكل التي يعانيها الإنسان وأن يعلّمه كيف يتجاوزها، ولن يتم ذلك بمجرد الالحاح على المحتوى بل لابدّ من خلق اشكال تتماشى مع الرؤية الجديدة وتستوعبها.

أن الفن الاشتراكي لا يحدد تقنيات معينة، وانما هو رؤية تغمر الأثر وتسخّر كل التقنيات لتصب في مصبّ واحد، وتخدم غاية واحدة ألا وهي المحافظة على انسانية الانسان.